

المحاضرة السادسة: المذهب المالكي في بلاد المغرب

أولاً: لمحة عن انتشار المذهب المالكي . لقد انتشر مذهب الإمام أنس بن مالك الأصبحي الحميري أبو عبد الله (93-179هـ) في جهات من أنحاء العالم عن طريق تلاميذه الذين تجاوز عددهم الألف، ومع كثرتهم فقد كانوا من أصقاع مختلفة ، ولما رجعوا إلى بلدانهم حملوا معهم ما كانت تتمتع به شخصية الإمام مالك العلمية من ازدواجية معرفته، القائمة على علمي الحديث والفقه، ونبوغه فيهما، فكما كان إماماً في مدرسة الحديث، كان إماماً في مدرسة الفقه، فأخذ تلاميذه معهم موطناً، وهو حصيلة جهده في جمع السنة النبوية، ونقد مروياتها « ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وبوّبه على أبواب الفقه... فكان كتاباً حديثياً فقهيًا جمع بين الأصل والفرع [2]»، وبذلك حملوا معهم فقهه وأقواله وأصوله . إلا أنه لم يكتب للمذهب المالكي الاستقرار والبقاء طويلاً في بلاد المشرق مثلما تمّ له ذلك ببلاد المغرب، فقد ذكر القاضي عياض: أن المذهب المالكي غلب على أهل الحجاز ومصر وبلاد أفريقيا والأندلس، وصقلية والمغرب الأقصى، وما جاوره من بلاد السودان، وظهر ببغداد ظهوراً كبيراً ، وضعف بها بعد أربع مائة سنة، وضعف بالبصرة بعد خمس مائة سنة ، وغلب في خراسان على قزوين وظهر في نيسابور، وكان له وبغيرها أتباع وأئمة ومدرسون، وكان ببلاد فارس، وانتشر ببلاد اليمن، وكثير من بلاد الشام [3]. فقد استقر أولاً بالقيروان على يد علي بن زياد التونسي [4]، وأبي سعيد عبد الرحيم بن أشرس [5]، وأبي عمرو البهلول بن راشد [6]. [7] يقول القاضي عياض: « وأما أفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين [8] إلى أن دخل علي بن زياد، وابن أشرس والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات، وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفسو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه وفضّ حلق المخالفين واستقرّ المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا...» [9]. وكان أهل الأندلس قبل دخول المذهب المالكي على مذهب الأوزاعي، إمام الشام [10] الذي نقله عامة الفاتحين الشاميين إلى الأندلس .

ثانياً: بداية ظهور المذهب المالكي بالمغرب والأندلس . فقد لقي المذهب المالكي قبولا حسنا في بلاد الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس، فكان ظهور مذهب الإمام مالك في هذه البلدان قد بدأ وانتشر في حياته -رحمه الله - فتكونت مدرسة بلاد الشمال الإفريقي [11]. فكان لكل مدرسة مميزات متمثلة في انفراد كل مدرسة بما رووا عن الإمام مالك، كما لها فقهاؤها المعتمدين من أتباع مالك ولها من الأمهات والمصادر ما يخصها ، كما تقوم كلها على أساس واحد هو " موطناً " مالك، ويرجع الفضل في مدرسة المغرب إلى علي بن زياد. قال سحنون: لو أن التونسيين يسألون لأجابوا بأكثر من جواب المصريين. يريد علي بن زياد وابن القاسم [12] ولسحنون فضله. ومدرسة المغرب والأندلس تتميز عن غيرها في التأصيل والتفريع، والتفريع داخل المذهب. كما أن حسنات أهل المغرب ترجع إلى الإمام العلامة يحيى بن يحيى الليثي فقد أخذ عن مالك إلى أن توفي ثم أخذ عن ابن القاسم وابن وهب يقول إتباع ابن القاسم في رأيه رشد. واتباع ابن وهب في أثره هدى. وكان يحيى جمع

مسائل، سأل عنها أشهب وابن نافع وغيرهما من أصحاب مالك، وكتبها عنهم... - ومن فقهه رحمه الله - أن وقع الأمير عبد الرحمان على جارية له في يوم من رمضان ثم ندم، وبعث في يحيى وأصحابه، فسألهم. فبادر يحيى وقال: يصوم الأمير، أكرمه الله شهرين متتابعين. فلما قال ذلك يحيى: سكت القوم. فلما خرجوا سألوه لم خصه بذلك دون غيره مما هو فيه، تخير من الطعام والعتق؟ فقال لو فتحنا له هذا الباب وطىء كل يوم وأعتق. فحمّل على الأصعب عليه لئلا يعود. [13] فصار لكل مدرسة منهجها وأسلوبها الخاص في الاستنباط يلائم الظروف المحيطة بها، مما أوجد آراء فروعية قد تخالف بعض أقوال مالك، إلا أن اجتهاداتهم وتخريجاتهم كانت في الغالب قائمة على ما يعتقدون اتفاهه مع قواعد مذهب إمامهم وأصوله.

ثالثاً: طلب الأول العوامل التي ساعدت على ظهور المذهب وقد تضافرت مجموعة من العوامل التي مهدت الطريق لهذا المذهب بالاستقرار في هذه البلاد منها: أولاً: العامل النفسي: أثر الإمام مالك بن أنس على المغاربة بسيرته العطرة وحسن معاملته فقد كان شديد العناية بطلبة العلم عموماً والمغاربة خصوصاً، بل كان يثني عليهم ويقول: إنَّ أهل الأمن والذكاء والعقول من أهل الأمصار ثلاثة: المدينة ثم الكوفة ثم القيروان. قال ابن عمران كان يجلب ابن غانم وإذا جاءه أقعده إلى جنبه ويسأله عن أخبار المغرب وإذا رآه أصحابه قالوا شغله المغربي عنا [14]. وقال عبد الله بن أبي حسان اليحصبي: فلم أزل عنده مكرماً (أي مالك). وأما المغاربة فلم يكن يزدرهم كما فعل زُفْرُ بن الهذيل تلميذ أبي حنيفة الذي كان يزدرى عبد الله بن فرُّوخ للمغربية [15]. ويتجلى تقدير الأمام مالكلهم بأن جعل المسألة لا ترد عليه وعبد الله (بن فروخ) حاضر إلا قال: أجب يا أبا محمد، فيجيب. ثم يقول مالك: هذا كما قال، ثم التفت مالك إلى أصحابه فقال: هذا فقيه المغرب [16]، وسعيد بن أبي هند الطليلي لقي مالكا وكان مكرماً له، فقد سماه الحكيم، وكثيراً ما كان يسأل عنه قائلاً: « ماذا فعل الحكيم الذي عندكم بالأندلس، لكلمة سمعها منه، وهي أن قال مالك يوماً: ما أحسن السكوت وأزينه بأهله ! فقال ابن أبي هند: وكل من شاء سكت يا أبا عبد الله ؟ فأعجبت مالكا كلمته » [17]. فكان لسلكه هذا الأثر الحسن في نفوس المغاربة، ومما ساعد على نمو هذه العلاقة تفسير العلماء لحديث النبي صلى الله عليه وسلم * (يُوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة) [18]، فقال العلماء إنَّ مالكا هو المقصود بالحديث [19]. ثانياً: العامل الاجتماعي: وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: " فالبداءة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداءة. ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب [20]. وهذا هو التشابه بين العربي و البربري في الأنفة وحب الذات، فالبيئتان صنعنا نفسيهما بأنفسهما دون تأثير كبير من بيئات أجنبية على عكس بيئات إسلامية قريبة كالعراق والشام التي صنعت شخصياتها من حضارات وافدة ومجاورة. ثالثاً: العامل الجغرافي: وهذا العامل يتمحور حول موقع المدينة المنورة مقر الإمام مالك رحمه الله، و دور موسم الحج في التلقي على الإمام إذ يعتبر الحج

دورة سنوية يجتمع فيه المسلمون من كل الأقطار لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة والصلاة في مسجده. قال القاضي عياض : « وأما أهل الأندلس فكان رأيهم، مذفُتحت، على رأي الأوزاعي، إلى أن رحل إلى مالك : زياد بن عبد الرحمن، و قرعوس بن العباس ، والغازي بن قيس ومن بعدهم، فجاءوا بعلمه وأبانوا للناس فضله واقتداء الأئمة به، فعرف حقه ودرس مذهبه» [21]. كما أن للمكان _المدينة_ وزنه في نفوس المغاربة، وكذلك لجلوس مالك قرب قبر النبي * صلى الله عليه وسلم، * وفي مسجده * صلى الله عليه وسلم * وهو يحدث عنه ويروي عنه فيتمثلونه في مقام عالٍ جداً ، *فيؤثر ذلك على أنفسهم تأثيراً إيجابياً؛ وهذا مما ساعد على انتشار مذهب الإمام مالك - رضي الله عنه - . رابعاً: العامل السياسي. جاء في الاستقصا: « رأيت في بعض التأليف في سبب ظهور مذهب مالك بالأندلس والمغرب أن حجّاج المغرب والأندلس قدموا على مالك - رضي الله عنه - بالمدينة ، فسألهم عن سيرة عبد الرحمان بن معاوية المعروف بالداخل، فقيل له : « إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله »، فقال مالك : « ليت الله زين حرمانا بمثله »؛ فنقم عليه بنو العباس هذه المقالة وكان ذلك سبب توصلهم إلى ضربه في مسألة الإكراه كما هو مشهور، وبلغت مقالته صاحب الأندلس فسّر بها، وجمع الناس على مذهبه فانتشر في أقطار المغرب من يومئذ...» [22]. بل هناك من بالغ في ادعائه كالإمام بن حزم رحمه الله، إذ قال: « مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة...ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاء وكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا والرئاسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به » [23]. فهذه الأسباب وغيرها جعلت المغاربة يتشبتون بالمذهب، مثل ما قال ابن التبان لو نشرت بين اثنين ما خالفت مذهب مالك أو مثلما تعبر عنه بعض الأمثال الشعبية الشائعة: "سيدي خليل والألفية، الحكمة ثمة مخفية" وليست هذه كل الأسباب التي أدت إلى انتشار المذهب.

رابعاً: بداية ظهور المذهب المالكي بالمغرب والأندلس واستقراره.

1- **بداية ظهور المذهب المالكي بالمغرب والأندلس** فالمذهب المالكي عرف طريقه نحو المغرب والأندلس في حياة الإمام مالك، وقد قيل: « إن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبظون هو أول من أدخل فقه مالك إلى الأندلس » [24]. وقد قيل أن أول من أدخل موطأ مالك بن أنس إلى المغرب هو عامر بن محمد بن سعيد القييسي على عهد المولى إدريس الثاني، وقد اشتهر أن أول من أدخل كتاب الموطأ للأندلس يحيى بن يحيى الليثي. أما ابن فرحون فقد ذهب إلى أن الغازي بن قيس ، هو أول من أدخل موطأ مالك ، وقراءة نافع إلى الأندلس . فالاختلاف في هذه الروايات لا يضر إذ يمكن التوفيق بينها، فأولية كل واحد منهم لها اعتبارها الخاص وقيمتها فكل منهم قد وضع حجرا في بناء المذهب بالمغرب. وعموماً فبداية ظهور المذهب المالكي بالأندلس كانت في عهد عبد الرحمن بن

معاوية (138- 172 هـ) على يد جماعة من الفقهاء الذين كان لهم دور مهم في إرساء مذهب مالك ونشره بين تلامذتهم لما تصدروا مجالس التدريس بعد عودتهم من الرحلة.

-2

: أسباب تمسك أهل الأندلس بالمذهب المالكي. إن تمسك المغاربة بالمذهب المالكي وإيثاره على غيره من المذاهب، لم يكن مجرد تقليد محض أو أمرا اتفاقياً، فإصرار علماء المغرب والأندلس، ومن ورائهم سواد الأمة، كان له أسباب وعوامل؛ لذلك سأحاول إبرازها باختصار لا شترأكها مع ما سبق [25]. 1- اعتماد المذهب على علمين جليلين، علم الحديث وعلم الفقه ويظهر ذلك جلياً في كتابه الموطأ. 2- رسوخ الأصول والقواعد التي بنى عليها مالك مذهبه، يقول ابن تيمية : « من تدبر أصول الإسلام وقواعد الشريعة وجد أصول مالك وأهل المدينة أصح الأصول والقواعد » [26]. 3- الأصول الاجتهادية عند مالك: كإجماع أهل المدينة، وقول الصحابي، والمصلحة المرسلية، والعرف، والعادات، وسد الذرائع، والاستصحاب، والاستحسان، ومراعاة الخلاف، وكثرة هذه الأصول جعلته المذهب أكثر مرونة، وتوسعة، ورفعاً للمشقة وأقرب إلى واقع الناس مع اختلاف أعرافهم وعاداتهم. 4- وحديث يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة ([27])، فقال العلماء إن مالكاً هو المقصود بالحديث [28] 5- فقد كان للإمام مالك من التلاميذ ما لم يكن لغيره من الأئمة وهذا بفضل طول مكث صاحب المذهب في الإقراء والإسماع، مما أتاح أن يكون له تلاميذ كثر فقد وصل عددهم إلى أكثر من لألف. 6- دور تلامذته: قال ابن تيمية [29] : « لما انتشر مذهب مالك بالأندلس، وكان يحيى بن يحيى بالأندلس والولاية يستشيرونه، فكانوا يأمررون القضاة ألا يقضوا إلا بروايته عن مالك ». 7- المنافسة بين فقهاء المالكية وأتباع مذهب الأوزاعي في أول الأمر، كان دافعا لتخلي أتباع الأوزاعي عن مذهبهم والانتقال إلى مذهب مالك. 8- تشابه بيئتي الحجاز والأندلس من الناحية الاجتماعية وهو الذي عبّر عنه ابن خلدون بقوله: " فالبدوابة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس، ... فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البدوابة [30]. 9- وجملت هذه القواعد جعلت الأمير الحاكم المستنصر يكتب إلى أحد فقهاء الأندلس قائلاً: « كل من زاغ عن مذهب مالك فإنه من رين على قلبه وزين له سوء عمله، و قد نظرت طويلاً في أخبار الفقهاء و قرأت ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا فلم أر مذهباً من المذاهب غيره أسلم منه، وإن فيهم الجهمية والرافضة والخوارج والمرجئة والشيعية؛ إلا مذهب مالك ما سمعت أن أحدا ممن يتقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع فالاستمساك به نجاة إن شاء الله » [31].

فهرس المصادر والمراجع

1. الإحاطة في أخبار غرناطة: ابن الخطيب، ت: محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1977.
 2. طبقات أبي العرب
 3. رياض النفوس للمالكي
 4. طبقات الخشني
 5. معالم الايمان للدباغ
 - 5 الإحكام: ابن حزم، ت: جماعة من العلماء، القاهرة، دار الحديث، ط1، 1404هـ. 3
 6. إحكام الفصول: الباجي، ت: محمد عبد الله محمد الجبوري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1989.
 7. أدب الفقهاء: عبد الله كنون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1984.
 5. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى: أبو العباس الناصري، ت: جعفر الناصري ومحمد الناصري، المغرب، دار الكتاب، 1997.
 6. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ابن عبد البر، ت: لجنة من العلماء، ط المغرب، ط1.
 7. دراسات في مصادر الفقه المالكي: ميكلوش موراني، ت: سعيد بحيري و آخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988.
 8. الديباج المذهب: ابن فرحون، القاهرة، دار التراث.
 9. ترتيب المدارك وتقريب المسالك القاضي عياض
 10. جنوة المقتبس:
 11. شجرة النور الزكية: محمد بن مخلوف، بيروت، دار الكتب العلمية.
 12. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس: ابن بشكوال، نشر: عزت العطار، القاهرة، 1955
 13. طبقات الفقهاء: الشيرازي، ت: إحسان عباس، بيروت، دار الرائد العربي، ط2، 1981.
- (المقال منقول من أحد الأساتذة الأفاضل لم أتصل عليه جزاه الله خيرا)